نظرة إمامين

عن الرواية والقصـــة

لم يألف الرواية والقصة فريق من أئمة كتّابنا في القرن التاسع عشر وبدء القرن العشرين ، كالشدياق وكردعلي ، فالأول زار « لندن » وشهد فيها التمثيل ووصف هذا التمثيل وصفاً يدل على ذوق ، ثم وصف بعض الأنواع الأدبية وسمّاها بأسمائها الافرنجية فقال :

« ثم إن التمثيل عندهم على نوعين ، الأول تمثيل ما يحزن من نحو الحروب وأخذ الثأر ويقال له عندهم : تراجيدي [1] والثاني وهو عكسه ويقال له : كوميدي [2] ، وكلاهما يعدّان من الأدبيات ، غير أنّ النوع الثاني يكثر فيه التوريات والمؤاربات والتجنيس » .

وقد نقد بعض هذا التمثيل ، فنقد طول وقت اللعب فيه ، وانه لفي نقد هذا الطول اذ خطر بباله طول الرواية فقال : وهذا كالتزام بعض المؤلفين عندهم لنوع يسمّى : نوفل ، وهو أن يجعلوا الكتاب ثلاثة مجلدات ، فيسفسفون ويدققون ويأتون بالغث والثمين . » .

وكما نفر الشدياق عن الرواية فقد نفر كرد علي عن القصة وهذا رأيه فيها : « أردت غير مرّة على أن أشارك في القصة ، أكتب فيها أو أنقد ، فما طابت نفسي للدخول في موضوع لم يأخذ منها ، وليس لي يد في القصص التي نشرتها

---

(١) أطلق على هذا النوع بعد ذلك اسم : المحزنات .
(٢) أطلق على هذا النوع بعد ذلك اسم : المضحكات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أوّل أمري لأنها مترجمة ، وأكبر داعٍ الى عدم عنايتي بالقصة اعتقادي أنها مختلقة » .

هذان رأيان صريحان في زهد كاتبين من كبار كتّاب النهضة الحديثة في الرواية والقصّة ، على أنه كاد هذان النوعان الأدبيان يحلاّن أرفع محل في أدبنا .

أمّا نقد الشدياق لطول الرواية الانكليزية فقد كان على حقٍ فيه لأن الرواية الانجليزية في أيامه كانت طويلة ، فهي ضعف الرواية الفرنسية ، وأمّا نقد كرد علي للاختلاق في القصّة ففيه بعض النظر .

وقد يطول بي الكلام على الرواية واتساعها لموضوعات شتى ، للتاريخ ودراسة الأهواء ووصف الأخلاق وتحليل العواطف واتساعها للطبيعة وواقع الحياة والمذهب الطبيعي والمثل الأعلى كما يطول بي الكلام على القصّة ، على أن موضوعات القصّة ليس من الضروري أن تكون مختلقة ، فقد يكون الموضوع مرّة حادثة من الحوادث تستنبط من واقع الحياة فيجهد القاصّ في التفتيش عن أصولها وفي تصوّر عواقبها ثم في التفتيش عن تأثير هذه الحادثة في رجال آخرين وفي بعض الأوقات في المجتمع نفسه وقد يكون الموضوع مرةً قانوناً من القوانين أو عادةً من العادات أو حالة من الحالات فيجتهد القاصّ في تصوّر ما يمكن أن يعمله هذا القانون أو هذه العادة أو هذه الحالة في أشخاص يخترعهم ذهنه اختراعاً ، وعلى كل حال الاختلاق بمعناه اللغوي ليس من خصائص القصّة وطبائعها ، فالافتراء شيء وتصوّر أمرٍ ممكن الوقوع شيء آخر ، فأصحاب الروايات لا يخترعون أبطالاً فوق الواقع أو خارج الواقع ولكنهم يضعون أبطالهم في هذا الواقع .

وكيف كان الأمر فالظاهر أن بعض الأدباء يميلون في هذا العصر الى أن يجمع المؤلف وثائق شخصية انسانية بعرضها على القرّاء ، فهم قد أخذوا يفضّلون المذكرات على الروايات .

ولم يعن أدبنا في قديم الدهر بالرواية والقصّة العناية كلها ولا ألف هذين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

النوعين الألفة كلها واني أعتقد أن أدبنا كان أدب تركيب لا أدب تحليل ، فاذا رجعنا الى طائفة من كتبه كالعقد الفريد أو كالبيان والتبيين فانا نجد في أكثر هذه الكتب عبارات وجيزة ، كثيفة في معانيها ، مختصرة في مبانيها تكاد تشتمل على موضوع رواية في هذا العصر ، من هذه العبارات ما ينسب الى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : ما تزيّد متزيّد إلاّ لنقص في نفسه ، ولست مستوثقاً كل الاستيثاق من ألفاظ هذه العبارة ولكن هذا هو معناها ، فهذه العبارة قد تكون في عصرنا موضوع رواية من الروايات الفلسفية ، فاذا أراد كاتب روائي شرحها في رواية استطاع أن يبين لنا ما يسمّونه في الفلسفة : مركّب النقص ، أمّا العرب فان أذواقهم تنفر عن مثل هذا الشرح وهذا التطويل ، فقد تغنيهم الإشارة أو اللمح عن كل ذلك وقد أعربوا عن هذا الغناء في كثير من مواضع كتبهم الأدبية ، وليس معنى هذا أن أدبنا يخلو من التحليل فانّا اذا رجعنا الى بعضه وجدنا فيه من التحليل المبني على التجربة والعيان ما يدهش العقل ، من ذلك تحليل الجاحظ للحسد في بعض رسائله ، فقد فطن الى دقائق من الحسد لا يكاد يفطن اليها الاّ الراسخون في علم النفس ، وكما لم يخلُ هذا الأدب من التحليل فكذلك لم يخلُ من القصص ، ومع هذا كله فالتركيب غالب على أدبنا أكثر من التحليل .

إلاّ أنّ الذي أعجب منه بعد هذه المقدمة وبعد هذا الاستطراد نفرة الشدياق عن الرواية وقد اجتمعت له خصائصها وأسرارها ، فالروايات في معظم الأحوال تشتمل على كثير من الوصف والتصوير اشتمالها على تحليل فكر من الأفكار أو مذهب من المذاهب ، فهي لا تستغني عن الوصف ولا عن التصوير ، واذا قرأنا رواية لكاتب راسخ في فنّ الروايات فان أوّل ما يبلغ منّا من هذه الرواية انما هو الوصف والتصوير .

لقد وصف الشدياق في كتبه أموراً كثيرة وصوّر أموراً كثيرة ، لقد وصف الشوارع والآثار والأبنية والمآكل والثياب والسحن والأخلاق والحياة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

الاجتماعية ووصف الفنون الرفيعة كالموسيقى والتمثيل ووصف بعض مخترعات عصره كالبرق وسماه في رحلته باسمه الافرنجي : التلغراف وفي هذا الوصف كله ظهرت شخصيته وظهرت عبقريته فان له قدرة على الوصف غريبة ، فعينه شديدة البصر وأنفه شديد الشم وأذنه شديدة السمع ولسانه شديد الذوق .

نجد في بعض وصفه لعادات أهل مالطة وأحوالهم وأخلاقهم وأطوارهم وصفاً بسيطاً مجرّداً من كل زينة الا ّ أن ألفاظه وحدها كافية أن ترينا الأشياء الموصوفة بسبب الصلة القوية بين الاسم والمسمّى ، بين اللفظ ومعناه كما نجده يميل في وصفه الى بعض ألفاظ العامة المتعلقة بالثياب كالبرنيطة والطربوش والصدرية والكفوف ، وشأنه في هذه المسامحة في اللغة شأن أكابر الكتّاب في القديم كالجاحظ الذي نرى في بعض كتاباته ألفاظ العامة لقوة تأثيرها في الأذهان .

وكما قدر الشدياق على الوصف فقد قدر على التصوير فصوّر فضول أهل مالطة وتلهيهم بالإصفاف من القول والعمل تصويراً يطول الكلام على خصائصه وعلى خصائص جمله ، فمرّة تكون هذه الجمل سريعة ومرّة تكون بطيئة وأريد بالسرعة في هذا المقام تصوير الكاتب لفكرته دون التعريج على التفاصيل والدقة غالبة على الأسلوبين ، أسلوب الوصف وأسلوب التصوير .

وكما عجبت من نفرة الشدياق عن الرواية وقد تهيأت له أسباب فنيا فكذلك عجبت من نفرة كرد علي عن القصّة وقد اجتمعت له بعض أسبابها ، لقد روى في مذكراته قصّة : قاضي دومة ، وهي وان كانت بضعة سطور إلا ّ أنّا نجد لها عرضاً وعقدة وخاتمة وقد عرضت حوادثها في أوضح معرض وتسلسلت تسلسلاً منطقياً زاد في وضوحها واشتبكت فيها الحوادث اشتباكاً أخّاذاً ، وأسلوب هذه القصة واضح فكل لفظ مناسب لمعناه وفي بعض القصّة حوار ولا شك في أن الحوار ينفخ في القصّة روحاً وحياةً .

فلماذا نفر هذان الكاتبان الإمامان عن الرواية والقصّة ولم تغب عنهما أسرار فنّهما .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net